

## المستطرف في كل فن مستظرف

إلى صحراء بيت المقدس يوما في الأسبوع وتحتمع عليه الخلق فيقرأ الزبور بتلك القراءة الرخيمة وكان له جاريتان موصفتان بالقوة والشدة فكانتا تضيّطان جسده ضيقا شديدا خيفة أن تنخلع أوصاله مما كان ينتصب وكانت الوحش والطير تجتمع لاستماع قراءته قال مالك بن دينار ۷ تعالى بلغنا أن الله تعالى يقيم داود يوم القيمة عند ساق العرش فيقول يا داود مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرحيم وقال سلام الحادي للمنصور وكان يضرب المثل بحذاهه مر يا أمير المؤمنين بأن يظمأوا إبلا ثم يورودها الماء فإني آخذ في الحداء فترفع رؤوسها وتترك الشرب وزعم أهل الطب أن الصوت الحسن يجري في الجسم مجرى الدم في العروق فيصفو له الدم وتنمو له النفس ويرتاح له القلب وتهتز له الجوارح وتخف له الحركات ولهذا كرهوا للطفل أن ينام على أثر البكاء حتى يرقق ويطرد وزعمت الفلاسفة أن النغم فصل بقي من النطق لم يقدر اللسان على استخراجه فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع لا على التقاطيع فلما ظهر عشقته النفس وحيثت إليه الروح ألا ترى إلى أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم ترجموا بالألحان واستراحت إليها أنفسهم وليس من أحد كائنا من كان إلا وهو يطرد من صوت نفسه ويعجّبه طنين رأسه ولو لم يكن من فضل الصوت الحسن إلا أنه ليس في الأرض لذة تكتسب من مأكل ولا مشرب ولا ملبس ولا صيد إلا وفيها معاناة على البدن وتعب على الجوارح ما خلا السماع فإنه لا معاناة فيه على البدن ولا تعب على الجوارح وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى خيري الدنيا والآخرة فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف وصلة الأرحام والذب عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب وقد يبكي الرجل بها على خطيبته ويذكر نعيم الملوك ويشمله في ضميره وأهل الرهبة نغمات وألحان شجية يمجدون الله تعالى بها ويكون على خطاياهم ويذكرنون نعيم الآخرة وكان أبو يوسف القاضي يحضر مجلس الرشيد وفيه الغناء فيجعل مكان السرور به بكاء كأنه يتذكر نعيم الآخرة وقد تحن